

محمد قطب

مذاهب فكرية معاصرة

الديمقراطية
الشيوعية
العلمانية
العقلانية
القومية والوطنية
الإنسانية
الإلحاد

موقع الصحوة

<http://www.sahwah.net>

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153)} [سورة الأنعام 153/6]

صدق الله العظيم

مقدمة

تسيطر اليوم أوروبا " 1 " بكل قوتها على العالم كله.

ومع السيطرة تتسرب مجموعة من الأفكار والمذاهب والمعتقدات، بل الخرافات كذلك - كخرافة الطبيعة الخالقة، والمادة الأزلية الأبدية المتطورة - فتنصب في أذهان الشعوب التي غلبت عليها أوروبا، إما عن طريق التسرب التلقائي الذي ينشأ من تقليد المغلوب للغالب ليضمن تبعيته له وعدم خروجه على طاعته . ولم تكن سيطرة أوروبا - بكل قوتها - هي السبب الوحيد في الحقيقة لهذا التسرب التلقائي أو ذلك الغزو الفكري، إنما كان هناك سبب لا يقل أهمية عن هذه السيطرة إن لم يكن - في نظرنا - أهم، هو غياب البديل الذي يمكن أن يأخذ مكان هذه الأفكار والمذاهب والخرافات إذا تبين عدم جدارتها بالاتباع، بل الذي يحول أصلاً دون التوجه إليها واتباعها في حالة وجوده، ونعني به الإسلام .. ذلك أن غيابه يعطى هذه المذاهب والأفكار في نفوس الناس حجية الأمر الواقع وثقل الأمر الواقع . أى أنها تصبح في حس الناس جدية بالاتباع لا لجدارتها الذاتية، ولا لأنها في ذاتها صحيحة، ولكن فقط لأنها موجودة بالفعل، والبديل غري موجود !

ولن نتعرض في هذا الكتاب لأسباب غياب هذا البديل، ولا للنتائج الخطيرة التي نتجت عن غيابه بالنسبة للمسلمين وبالنسبة للعالم كله " 2 " . إنما أردنا في هذا الكتاب أن نتعرض لهذه الأفكار والمذاهب ذاتها، فنعرضها عرضاً موضوعياً نبين فيه ما تحتوى عليه من حقائق وما تحتوى عليه من أباطيل، ونبين فيه - أهم من ذلك - الظروف التي أدت إلى نشأتها وتشكلها على هذه الصورة، فإن كثيراً من الناس الذين يأخذونها على أنها أمر واقع، لا يسألون أنفسهم كيف نشأت، وما الظروف التي جعلتها تأخذ هذه الصورة، كأنهم يعتقدون - من ثقله الأمر الواقع على حسهم - أنها ذات وجود طبيعي، وأن الصورة التي هي عليها هي الصورة الطبيعية لهذا المذهب أو ذاك، ولا يضعون في حسابهم أن ظروفها محلية بحتة في أوروبا هي التي جعلت الفكر الأوروبي يتجه هذه المتجهات، ويسلك هذه المسالك، وأنه لو كانت هناك ظروف مختلفة، لاعتنقت أوروبا أفكاراً ومذاهب من نوع آخر .

بعبارة أخرى إن هذه الأفكار والمذاهب هي انعكاس لظروف محلية بحتة في أوروبا، وليست كما هي في حس الأوروبيين ومن يدور في فلکهم من الشعوب المغلوبة " قيما " قائمة بذاتها، ولا أفكاراً " إنسانية " تنبع نبعاً ذاتياً من كيان " الإنسان " بوصفه إنساناً . ولم يكن من الحتم أن تعتنقها أوروبا ذاتها - لو أتاحت

" 1 " ليس المقصود بأوروبا حنودها الجغرافية . إنما المقصود "الغرب" كله بامتداده الأمريكى والروسى على السواء.

" 2 " في النية إصدار كتاب في هذا الموضوع بعنوان "واقعا المعاصر" .

لها ظروف أفضل - وليس من الحتم أن يعتنقها أحد في خارج أوروبا ما دامت ظروفه غير ظروف القوم هناك .

وهذا الكتاب لم يكتب للمسلمين وحدهم، وإن كان المسلمون يستطيعون أن يفيدوا منه مزيداً من المعرفة بدينهم، على قول الفاروق عمر رضى الله عنه : " لا يعرف الإسلام من لم يعرف الجاهلية ! " فمعرفة المسلمين بانحرافات الجاهلية المعاصرة تزيدهم معرفة بكمال الدين المنزل من عند الله .

ولكنى كتبتة لكل من يرغب أن يعرف شيئاً عن هذه المذاهب المنتشرة في الأرض اليوم، وأسباب نشأتها وتشكلها على هذه الصورة . ولم أقصد به أن يكون دراسة متخصصة، ولكنى حاولت أن أضع فيه القدر المناسب من المعلومات، الذى يلقي ضوءاً معقولاً على هذه المذاهب والأفكار .

ولم أتحدث عن كل المذاهب المعاصرة، فلم يكن قصدى الاستقصاء، إنما رضت لأبرز هذه المذاهب وأكثرها انتشاراً فى عالمنا المعاصر، فاخترت منها : الديمقراطية والشيوعية والعلمانية والعقلانية والقومية والوطنية والإنسانية الإلحاد .

فإن كنت قد قصرت فيما بذلت من الجهد فهذا هو العجز البشرى، وأن كنت قد وفقت فمن الله التوفيق .

محمد قطب

التمهيد الأول

الدين والكنيسة

نبذة تاريخية

أولاً : تحريف الدين :

لم تعرف أوروبا قط دين الله المنزل على حقيقته الربانية .

إنما عرفت صورة محرفة من صنع الكنيسة الأوروبية لا صلة لها بالأصل المنزل، الذى أرسل المسيح ليلغه

لبنى إسرائيل : { وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَىٰ قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ... } [سورة آل 49/3]

وإذا استثنينا أفراداً قلائل، متناثرين على طول التاريخ المسيحى من بعثة عيسى عليه السلام إلى بعثة الرسول

صلى الله عليه وسلم فإن الجماهير الأوروبية ظلت تستقى دينها من رجال الدين من البابوات والكرادلة، ومن

المجامع المقدسة وشراح الأناجيل المحرفة، وتعتبرهم مرجعاً لا يرقى إليه الشك ولا يجوز أن يناقش ! فاتخذوهم -

على الحقيقة لا على المجاز - أرباباً من دون الله :

{ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُؤَسَاءَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (31) } [سورة التوبة 31/9]

وفي القرون الثلاثة الأولى من ميلاد المسيح كان الأباطرة وثنيين لا يؤمنون بدين منزل، فكانوا يضطهدون

النصارى من صح اعتقاده منهم ومن انحرف وحرف، يسومونهم سوء العذاب، ويشردونهم فى الأرض، حتى

اتخذ فريق منهم الأديرة والملاجئ فى أطراف الأرض فراراً من العذاب .

وفي القرن الرابع تغير الأمر حين اعتنق الإمبراطور قسطنطين المسيحية وفرضها على الإمبراطورية . ولكن

الدين الذى فرضه قسطنطين هو - باعتراف المؤرخين والمفكرين الغربيين أنفسهم - شئ آخر غير الدين الذى

بشر به المسيح .

يقول درابر الأمريكى فى كتابه " الدين والعلم "

" ودخلت الوثنية والشرك فى النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة، ومناصب عالية فى

الدولة الرومية بتظاهرهم بالنصرانية . ولم يكونوا يحفلون بأمر الدين، ولم يخلصوا له يوماً من الأيام .. وكذلك

كان قسطنطين .. فقد قضى عمره فى الظلم والفجور، ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلاً فى آخر عمره

(سنة 337م) .

" إن الجماعة النصرانية، وإن كانت قد بلغت من القوة بحيث ولت قسطنطين الملك، ولكنها لم تتمكن

من أن تقطع دابر الوثنية وتقتلع جرثومتها . وكان نتيجة كفاحها أن اختلطت مبادئها، ونشأ من ذلك دين

جديد، تتجلى فيه النصرانية والثنية سواء بسواء .. هنالك يختلف الإسلام عن النصرانية إذ قضى على منافسه " الوثنية " قضاء باتا، ونشر عقائده خالصة بغير غش ..

" وإن هذا الإمبراطور الذى كان عبداً للدين، والذى لم تكن عقائده الدينين تساوى شيئاً، رأى لمصلحته الشخصية، ولمصلحة الحزبين المتنافسين - النصراني والوثني - أن يوحدهما ويؤلف بينهما، حتى إن النصراني الراسخين أيضاً لم ينكروا عليه هذه الخطة . ولعلهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر إذا طعمت ولقحت بالعقائد الوثنية القديمة ! وسيخلص الدين النصراني عاقبة الأمر من أدناس الوثنية وأرجاسها " ¹ ويقول فشر المؤرخ الانجليزي :

" إن حكمة الكنيسة المسيحية هدت آباءها الأولين إلى قبول ما لم يستطيعوا له منعاً من قديم العادات والتقاليد والمعتقدات " !! " بدليل استقبال الكنيسة لمبدأ تعدد الآلهة الراسخ بين شعوب البحر الأبيض المتوسط، وتطويع ذلك المبدأ لما تقتضيه عقائدها " ² !! ويقول رينان الفيلسوف الفرنسى :

" إنه ينبغى لفهم تعليم يسوع المسيح الحقيقي كما كان يفهمه هو أن نبحث في تلك التفاسير والشروح الكاذبة التي شوهت وجه التعليم المسيحي حتى أخفته عن الأبصار تحت طبقة كثيفة من الظلام . ويرجع بحثنا إلى أيام بولس الذى لم يفهم تعليم المسيح بل حملة على محمل آخر ثم مزجه بكثير من تقاليد الفريسيين وتعاليم العهد القديم . وبولس كما لا يخفى كان رسولاً للأمم، أو رسول الجدل والمنازعات الدينية، وكان يميل إلى المظاهر الخارجية الدينية كالتحان وغيره ن فأدخل أمياله هذه على الدين المسيحي فأفسده . ومن عهد بولس ظهر التلمود المعروف بتعاليم الكنائس . وأما تعليم المسيح الأصلي الحقيقي فحسر صفته الإلهية الكمالية، بل أصبح احدى حلقات سلسلة الوحي التي أولها منذ ابتداء العالم وآخرها في عصرنا الحالى، والمستمسكة بما جميع الكنائس، وإن أولئك الشراح والمفسرين يدعون المسيح إلها دون أن يقيموا على ذلك الحججة، ويستندون في دعواهم على أقوال وردت في خمسة أسفار : موسى والزبور، وأعمال الرسل ورسائلهم، وتأليف آباء الكنيسة، مع أن تلك الأقوال لا تدل أقل على أن المسيح هو الله " ³ ويقول برنتن :

¹ " نقلاً عن كتاب " ماذا خسّر العالم بانحطاط المسلمين " للسيد أبي الحسن الندوى .

² " تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ج 1 ص 80

³ " عن محاضرات في النصرانية " للشيخ محمد أبو زهرة ص 215 . وواضح أن رينان قد ركز على نقطة الفساد الحقيقية في تعاليم الكنيسة وهي تأليه المسيح ، ولكنه خلط بما مسألة الختان وغيرها مما سماه " مظاهر خارجية " ولم تكن مسألة الختان التي عجزت الكنيسة عن تطبيقها هي التي أفسدت المسيحية - وهي من تعاليم إبراهيم عليه السلام التي تلقاها من الوحي - إنما كانت مسألة التثليث وتأليه عيسى عليه السلام .

" إن المسيحية الظاهرة في مجمع نيقية - وهي العقيدة الرسمية في أعظم إمبراطورية في العالم - مخالفة كل المخالفة لمسيحية المسيحيين في الجليل " ¹ " ولو أن المرء اعتبر العهد الجديد التعبير النهائي عن العقيدة المسيحية لخرج من ذلك قطعاً لا بأن مسيحية القرن الرابع تختلف عن المسيحية الأولى فحسب، بل بأن مسيحية القرن الرابع لم تكن مسيحية بتاتا " ² " ويقول المؤرخ الإنجليزي ويلز :

" وظهر لوقت معلم آخر عظيم يعده كثير من الثقافات العصريين المؤسس الحقيقي للمسيحية وهو شاول الطرطوسي أو بولس .. والراجح أنه كان يهودى المولد، وإن كان بعض الكتاب اليهود ينكرون ذلك، ولا مرء في أنه تعلم على أساتذة من اليهود بيد أنه كان متبحراً في لاهوتيات الإسكندرية الهلينية .. وهو متأثر بطرائق التعبير الفلسفى للمدارس الهلنستية ن وبأساليب الرواقيين، كان صاحب نظرية دينية ومعلماً يعلم الناس قبل أن يسمع يسوع الناصرى بزمن طويل .. ومن الراجح جداً أنه تأثر بالثرائية إذ هو يستعمل عبارات عجبية الشبه بالعبارات المثرانية . ويتضح لكل من يقرأ رسائله المتنوعة جنباً إلى جنب مع الأناجيل أن ذهنه كان مشبعاً بفكرة لا تظهر قط بارزة قوية فيما نقل عن يسوع من أقوال وتعليم، ألا وهي فكرة الشخص الضحية الذى يقدم قرباناً لله كفارة عن الخطيئة . فما بشر به يسوع كان ميلاداً جديداً للروح الإنسانية . أما ما علمه بولس فهو الديانة القديمة . ديانة الكاهن والمذبح وسفك الدماء لاسترضاء الإله " ³ " ويقول أيضاً :

" وفى أثناء ذلك الأمد غير المحدد كان يحدث فيما يبدو قدر جسيم من ضرب بعينه من الثيوكرازيا (أى التوحيد والمطابقة بين اللهة المختلفة) بين النحلة المسيحية والعقيدة المثرائية التى تكاد تضارعها فى سعة انشترها بين سواد الشعب، ونحلة سيرابيس إيزيس حورس ...

" على أن ما أسهمت به نحلة الاسكندرية فى الفكر المسيحى والطقوس المسيحية كان أعظم قدراً أو يكاد .. إذ كان طبيعياً أن يجد المسيحيون فى شخصية حورس (الذى كان ابناً لسيرابيس وهو سيرابيس فى نفس الوقت) شبيهاً مرشداً لهم فيما يبذلون من جهود عنيفة لتفهم ما خلفه لهم القديس بولس من خفايا ... " ⁴ " ...

وتكفيينا هذه الشهادات من مؤرخى الغرب ومفكره، لنذكر مدى التحريف والتشويه الذى أدخله بولس والمجامع المقدسة من بعده على العقيدة الصحيحة التى جاء بها رسول الله عيسى ابن مريم عليه السلام .

¹ " أى المسيحية الأولى كما جاء فى كلام الكاتب بعد ذلك .

² " كتاب " أفكار ورجال " تأليف جرين برتن وترجمة محمود محمود ص 207 من الترجمة العربية .

³ " معالم تاريخ الإنسانية ج 3 ص 705

⁴ " المصدر السابق ج 3 ص 708 - 709

{وَأُذِ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخُذُونِي وَأُمِّي إِهْنِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (116) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُمْ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117)} [سورة المائدة 117-116/5]

صدق الله العظيم

على أن التحريف الذى وقع فى العقيدة من جعل الإله الواحد ثلاثة أقانيم، وتأليه عيسى عليه السلام وادعاء بنوته لله تعالى، وتأليه مريم وروح القدس جبريل عليه السلام، واختراع قصة الصلب والقداد، وعبادة الصليب وعبادة التماثيل والأوثان .. الخ .. الخ .. هذا التحريف على بشاعته لم يكن هو التحريف الوحيد الذى أدخلته الكنيسة والجماع المقدسة على دين الله المنزل، بل أضافت الكنيسة انحرافاً آخر لا يقل سوءاً ولا تشويهاً للدين المنزل من عند الله، وذلك بعزل العقيدة عن الشرعة واتخاذ الدين عقيدة فقط، وترك القانون الرومانى يحكم الحياة .

إن الدين المنزل من عند الله كان دائماً عقيدة وشرعية فى ذات الوقت : عقيدة فى الله الواحد الفرد الصمد، الذى لا شريك له ولا ولد، وتنظيمات تنظم حياة الناس فى الأرض فى إطار أوامر الله ونواهيه .

فأما العقيدة فقد جاءت واحدة ي جميع الرسالات السماوية لأنها - بطبيعتها - غير قابلة للتغيير ولا التبديل . فالله سبحانه واحد . وكل الرسل المرسلين من عند اله جاءوا بعقيدة التوحيد - عقيدة الحق - فقالوا لأقوامهم كما يحكى القرآن الكريم عنهم : " اعبدوا الله ما لكم من إله غيره " أما الشريعة وما تحويه من تنظيمات فقد تغيرت - بحسب أحوال الأقسام الذين أرسل المرسلون إليهم، وانحرافاتهم الخاصة التى كانوا واقعين فيها - حتى اكتمل الدين فى الوحي المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم نزل قوله تعالى : {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِيناً} [سورة المائدة 3/5] ولكنها - أى الشريعة - كانت دائماً هناك ! كانت موجودة فى كل رسالة أنزلت على رسول من رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً . وقد أشار القرآن إلى بعض تفصيلاتها فى مثل قوله تعالى :

{وَأِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْفُسُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (84) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعَثُّوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (85) بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ

(86) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا " 1 " أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ " 2 {
[سورة هود 84/11-87]

وقوله : { كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (124) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (125) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (126) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (127) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (131) } [سورة الشعراء 123/26-131]

وقوله : { كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطِ الْمُرْسَلِينَ (160) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (161) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (162) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (163) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (164) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (165) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (166) }
[سورة الشعراء 160/26-166]

وما كانت الرسالة المنزلة على عيسى ابن مريم بدعا من الرسالات في هذا الشأن . بل ينص القرآن الكريم نصاً صريحاً على أن عيسى ابن مريم جاء مصداقاً لما بين يديه من التوراة – وهي حافلة بالتشريعات التفصيلية في كثير من شؤون الحياة – وليحل لبني إسرائيل بعض الذي كان قد حرم عليهم من باب العقوبة على ما اجترحوه من السيئات :

{ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (50) } [سورة آل 50/3]

كما ينص على أن الله جعل لكل أمة شرعة ومنهاجاً، وأمر كل قوم أن يحكموا بمقتضى الشرع الذى نزل عليهم وإلا فهم كافرون وظالمون وفاسقون، حتى يأتي الرسول الأخير صلى الله عليه وسلم فيحتكموا جميعاً إلى شريعته .

{ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَخُكُّمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَابُ بِمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاحْشَوْنِي وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (44) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (45) وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (46) وَلَيَحْكُمَنَّ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ

" 1 " هذه خاصة بالعقيدة .

" 2 " وهذه تتعلق بالشرعة وكلتاها متصلة بالصلاة التي يصلحها شعيب لله كما هو واضح من استنكار القوم .

بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (47) وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (48) وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحِدًا زُهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (49) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (50) {

[سورة المائدة 44/5-50]

ورغم أن وجوب تحاكم النصارى إلى ما جاء في التوراة والإنجيل من تشريعات واضح تمام الوضوح في الكتب المتداولة بين أيديهم بالرغم من كل ما حدث فيها من تحريف، فإن الكنيسة زعمت أن القانون الروماني - قانون قيصر - له شرعية تبيح اتباعه وهو يحكم بغير ما أنزل الله، ونسبت هذا الزعم إلى السيد المسيح، كما نسبت إليه من قبل أنه قال إنه إله وإنه ابن اله .. سواء بسواء !

جاء في أناجيلهم هذه القصة :

" ذهب الفريسيون وتشاروا لى يصطادوه (أى السيد المسيح) بكلمة، فأرسلوا إليه تلاميذهم مع الهيرودسيين قائلين : يا معلم ؟ إنك صادق وتعلم طريق اله بالحق ولا تبالى بأحد، لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس فقل لنا ماذا تظن ؟ أيجوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا ؟ فعلم يسوع خبتهم وقال : لماذا تجربونى يا مرءون ؟ أرونى معاملة الجزية . فقدموا له ديناراً فقال لهم : لمن هذه الصورة والكتابة ؟ قالوا له : لقيصر ؟ فقال لهم : أعطوا إذن ما لقيصر لقيصر وما لله لله ؟ فلما سمعوا تعجبوا وتركوه ومضوا " 1

وليس لنا من سبيل إلى الجزم فى أمر هذه القصة، هل حدثت بهذه الصورة أم يغيرها أم لم تحدث على الإطلاق . وإن كنا أقرب إلى الشك فيها منا إلى إثباتها . ولكننا نفترض جدلاً أن القصة حدثت على هذا النحو، وأن المسيح تكلم بهذه الألفاظ، فهل يمكن أن يكون قصده منها هو إعطاء الشرعية لأمر قيصر الذى لا يؤمن بالله ورسوله ولا يتحاكم إلى شريعة الله، وقسمة شؤون الحياة بين قيصر وبين الله سبحانه وتعالى بحيث يكون لقيصر نطاق يتصرف فيه على هواه ويطاع فيما يأمر به، وتكون بقية الشؤون - التى لا يهتم بها القيصر - هى النطاق المتروك لله ؟!

وما الشرك إذن فى أجلى صورته ؟!

إن هذا المعنى يستحيل أن يخطر في بال المؤمن العادى الذى يؤمن بلا إله إلا الله . فكيف بنى مرسل من عند الله !؟

إن أقصى ما يمكن أن تدل عليه القصة - على فرض صحتها جدلاً - أن المسيح عليه السلام يقول لهم : إننا لم نؤمر الآن بقتال قيصر، فإذا فرض عليكم الجزية - ولا قبل لكم اليوم برد سطوته عنكم - فادفعوا له الجزية حتى يأتى اليوم الذى يؤذن لكم فيه بالقتال لإخضاع قيصر لشريعة الله . وهذا كما قيل للمؤمنين فى مكة : { كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ } [سورة النساء 77/4] حتى جاءهم الإذن بالقتال فى قوله تعالى : { أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) } [سورة الحج 39/22] ثم جاء الأمر بالقتال لإخضاع الأرض كلها لشريعة الله : { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلَّهُ لِلَّهِ } [سورة الأنفال 39/8]

ولكن الكنيسة حملت هذه القصة - على فرض صحتها - فوق ما تحتمل، وزعمت أن معناها أن من حق قيصر أن يحكم عالم الأرض على أن يحكم الله عالم السماء، أو أن الأبدان لقيصر يفعل بما يشاء فى الحياة الدنيا، والله الأرواح فى الآخرة ! وهكذا سمحت للعالم المسيحى أن يحكمه القانون الرومانى فى كل شؤونه ما عدا " الأحوال الشخصية " من زواج وطلاق .. الخ .. وأن ينحصر سلطان الله على عباده فى مشاعر الخشوع والتقوى والشعائر التعبدية .. والأحوال الشخصية التى لا يهتم بها قيصر إذا ما تركت لشريعة الله ! ... وتم بذلك فصل العقيدة عن الشريعة، وتم المسخ الكامل لدين الله !

هذا الدين - بهذه الصورة - لم يكن صالحاً للحياة .

فما يلح دين تشوه عقيدته على هذا النحو، ثم تفصل الشريعة فيه عن العقيدة وتحصر فى أضيق نطاق .

إن الدين يأتى لإصلاح الأرض وإقامة حياة الناس بالقسط .

{ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (85) } [سورة الأعراف 85/7]

{ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (55) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ

خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (56) } [سورة الأعراف 55/7-56]

{ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ } [سورة الحديد 25/57]

وهذا الإصلاح الذى يقيمه الدين فى الأرض ينشأ من انصياع الناس لحقيقة ضخمة هى حقيقة التوحيد،

بكل أبعادها وكل مقتضياتها، فتتضبط بها حركة النفس وحركة الحياة البشرية على السواء .

التوحيد هو " الميزان " الذى يضبط النفس والحياة .

فالإنسان عابد بفطرته ..

{ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا }

[سورة الأعراف 172/7]

وقد تهتدى النفس بميثاق الفطرة وقد تضل . ولكنها - بما أودع في فطرتها - تظل دائماً تبحث عن الإله

... تبحث عن " المعبود " ¹

ومن ثم فإن الإنسان لا بد أن يعبد .. يعبد الله أو يعبد شيئاً غير الله .

وليس الفارق بين إنسان وإنسان أن هذا يعبد وهذا لا يعبد . إنما الفارق في المعبود : أهو الله سبحانه

وتعالى، المستحق للعبادة، أم غيره من الآلهة التى لا واقع لها فى الحقيقة .

وتتعدد المعبودات من دون الله وتختلف باختلاف الزمان والمكان، واختلاف مبلغ الجاهلية من " العلم "

الأرضى وتتوحد عبادة الله فلا تتغير طبيعتها باختلاف الزمان والمكان " ² .

كان الناس فى جاهلياتهم المختلفة يعبدون " الأب " أو يعبدون " الطوتم " أو يعبدون " قوى الطبيعة "

المختلفة من رعد وبرق وريح ومطر، ويعبدون الأفلاك من شمس وقمر ونجوم، أو يعبدون الأصنام والأوثان، أو

يعبدون البشر من الأنبياء والقديسين والأحبار والرهبان، أو يعبدون الطبيعة .. ثم عبد الإنسان ذاته فى الجاهلية

المعاصرة، ثم تعددت المعبودات فصار اسمها الوطن أو الدولة أو القومية أو المذهب أو الحزب أو الزعيم ..

أو الجنس أو الإنتاج المادى أو الدولار " ³ !

كلها معبودات يتخذها الناس أرباباً من دون الله، وتتحكم فى حياتهم فيسيرون على مقتضى ما تأمرهم به

فى الوهم أو الحقيقة .

وفى جميع تلك الأحوال يكون الناس عابدين لأربابهم وخاضعين لما تأمرهم به تلك الأرباب .

أما فى حالة الهدى فيعبد الناس اله وحده بلا شريك، ويتبعون أوامره ونواهيه، أى : يحكمون بما أنزل الله

ويختلف الأمر اختلافاً بيناً ما بين هذه العبادة وتلك، أمر النفس وأمر الحياة سواء .

فأما النفس فما أبعد الفارق بين أن تعبد الوهم وأن تعبد الحقيقة !

¹ " فى فصل " الإلحاد " فيما بلى من الكتاب حديث أكثر تفصيلاً عن هذه النقطة .

² " يقول علم مقارنة الأديان أن الدين قد " تطور " على مدى التاريخ : والحقيقة أن عقائد الجاهلية هى التى تطورت أما عقيدة التوحيد فلم تتغير من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم وإلى أن يرث الله الأرض وما عليها .

³ " يقول الرسول صلى الله عليه وسلم " تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار " .

{ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (19) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (20) وَلَا الظُّلُّ وَلَا الخُرُورُ (21) وَمَا يَسْتَوِي
الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ } [سورة فاطر 19/35-22]

هل يستوى من يخبط في الظلمات خبط عشواء يبحث عن شئ يظنه ظناً ولا وجود له في الحقيقة، ومن
يمشى على النور إلى وجهة يعلمها ويتوخاها ويسير قاصداً إليها ؟
{ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (22) } [سورة الملك
22/67]

أيهما أضبط حركة وأيسر مسيراً ؟!

أيهما أروح نفساً وأكثر طمأنينة ؟!

ثم إن النفس البشرية في رحلتها على الأرض لتواجه أسئلة ترد - لا محالة - على الفطرة وتطلب الجواب

من خالق هذا الكون ؟

من أين جئنا ؟

إلى أين نذهب بعد الموت ؟

من يدير الكون وينشئ الأحداث ؟

لأى شئ نعيش ؟

أفمن يملك دليل الرحلة يدلّه إلى معالم الطريق أهدى أم من يخبط خبط عشواء بلا دليل ؟

أيهما أضبط حركة وأكثر طمأنينة .. من له غاية موحدة يهدف إليها يحدوه حاد واحد إليها، أم من له

غايات متعددة متضاربة يحدوه إليها حداة مختلفون كل يدعو إلى طريق ؟

{ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا } [سورة الزمر

29/39]

{ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39) } [سورة يوسف 12/39]

ثم .. أيهما أكثر كرامة ؟!

من يعبد الله الحق، ويتحرر - من ثم - من عبادة الأرباب الزائفة كلها . ويستعلى عليها، ويحس بوجوده

الإيجابي تجاهها، سواء كانت بشراً طاغين في الأرض بغير الحق، أو كانت " قوى " مادية أو معنوية، أو كانت

" حتميات " زائفة كالحتمية المادية أو الحتمية الاقتصادية أو الحتمية التاريخية، أو كانت أهواء وشهوات ذاتية

.. أم من يعبد هذه الأرباب الزائفة المتفرقة ويخضع لسلطانها فتستعبده بذلك السلطان ؟!

ثم .. أيهما أكثر كرامة؟!

من يعبد الإله الذى يكرمه ابتداءً ويمنحه الوجود ويمنحه المكانة العالية .

{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا

(70) { [سورة الإسراء 70/17]

أم من يعبد الآلهة التى تستعبد أصحابها فتذلها وتسلبها الإرادة وتسلبها الوجود؟
ذلك أمر " النفس " مع عقيدة التوحيد .

الاستبصار والأمن والكرامة وتوحد الهدف وتوحد الطريق .

وإن النفس التى تعبد الله الحق، وتطمئن بذكره وعبادته، وتعرف دليل رحلتها على الأرض، من أين وإلى أين، لتتوحد طاقتها وتترتب ذراتها كما تترتب ذرات الحديد فى قطعة المغناطيس، فتصبح طاقة كونية هائلة بدلاً من أن تصبح بديلاً ضائعاً فى التيه .

أما الحياة البشرية – حياة المجموع البشرى – فميزانها كذلك هو التوحيد .

من الذى يرسم للبشرية منهج الحياة؟ من الذى يقول هذا حلال وهذا حرام؟ هذا مباح وهذا غير مباح؟ هذا حسن وهذا قبيح؟ هذا طيب وهذا خبيث؟!

إنه – من جهة – حق الإله الحقيقى على عباده، وليس حق الآلهة المدعاة، فيما أنه هو الخالق فهو –

سبحانه – صاحب الأمر : {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} [سورة الأعراف 54/7]

ثم أنه – من جهة أخرى – حق العليم الخبير، وليس حق الجهال الحدودى الأفاق : {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} (216) [سورة البقرة

216/2]

وفى عقيدة التوحيد تكون الحاكمية – أى حق التحليل والتحريم والإباحة والمنع – لله وحده دون شريك

وفى الجاهلية تكون الحاكمية للبشر، مع الله، بخلط شئ من التشريع الإلهى مع شئ من التشريع البشرى، أو من دون الله، بنبد التشريع الربانى جملةً واتخاذ شرائع كلها من صنع البشر، سواء كان البشر فرداً حاكماً بأمره، أو فرداً حاكماً بمشورة طائفة غيره من البشر، أو كانوا كل البشر على السواء ..

وكل ذلك إشراك مع الله وكفر بالله " 1 " :

" 1 " فى ظل الإسلام يجتهد البشر " المؤمنون " فيما لا نص فيه . ولكن هذا ليس تشريعاً من عند أنفسهم ، فهم إنما يجتهدون فيما أذن الله لهم أن يجتهدوا به ، ولولا إذن الله لهم ما كان لهم أن يجتهدوا ولا يضعوا الأحكام ، فهم – بمنا الإذن – يضعون الأحكام ولكنهم لا يشاركون فى الحاكمية التى هى حق التحليل والتحريم والإباحة والمنع ، فضلاً عن ذلك فإن الاجتهاد محكوم بالأصول العامة للشريعة لا يخرج عن إطارها .

{ أَمْ هُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ } [سورة الشورى 21/42]
 { اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ } [سورة الأعراف 3/7]
 { وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (44) } [سورة المائدة 44/5]

ويختلف الأمر اختلافاً بيناً ما بين عقيدة التوحيد، التي تجعل الحاكمية لله، وعقائد الشرك والكفر التي تجعل الحاكمية للبشر مع الله أو من دون الله .

يختلف أولاً من ناحية الكرامة البشرية، ويختلف ثانياً من ناحية الواقع البشرى . فأما من ناحية الكرامة البشرية ففي عقيدة التوحيد، التي تجعل الحاكمية لله، يكون الناس عبيداً لله وحده - وهو الكريم المكرم - متحررين من كل عبودية لغير الله، مستعدين بوجودهم على الطواغيت . وفي عقائد الشرك والكفر، التي تجعل الحاكمية للبشر مع الله أو من دون الله، يكون بعض البشر أرباباً وهم المالكون المسيطرون المشرعون، وبعضهم عبيداً لأولئك الأرباب . وهم الذين يقع عليهم سلطان الطواغيت .

وأما من ناحية الواقع البشرى فالعدل والرشد هو طابع الحياة في ظل عقيدة التوحيد التي تجعل الحاكمية لله، والظلم والتخبط هو طابع الحياة في ظل عقائد الشرك والكفر التي تجعل الحاكمية للبشر مع الله أو من دون الله .

فأما الظلم فينشأ - دائماً - في الجاهلية من كون الذين يشرعون - سواء كانوا فرداً أو طبقة " 1 " يشرعون لمصلحتهم الخاصة على حساب مصالح الآخرين .

وأما التخبط فينشأ من عجز البشر عن الإحاطة بالأمر سمن كل جوانبه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والمادية والروحية .. الخ، وعجزهم عن رؤية النتائج المستقبلية المترتبة على أعمالهم الحاضرة فمهما قدروا وتخيّلوا فإن الواقع العملى يأتي دائماً مخالفاً لما قدروه وتخيّلوه في بعض جوانبه أو في كل جوانبه، وتنبت دائماً مشاكل جديدة من الحلول المبتسرة التي يواجهون بها مشاكلهم، لم تكن في حسابان الذين وضعوا هذه الحلول . وهكذا تظل الحلقة المفرغة : مشكلات قائمة، وحلول مبتسرة تنبت منها مشكلات جديدة توضع لها حلول مبتسرة جديدة وهذا إذا أحسنا الظن بواضعي الحلول وافترضنا أنهم مخلصون في وضع ما يضعون من حلول وأنهم لا يخططون لإيقاع البشرية في الخبال لغايات شريرة " 2 "

بينما تقوم شريعة الله على العدل، لأن الله - سبحانه - ليست له مصلحة ذاتية يطلبها من وراء تلك الشريعة، وهو الغنى الحميد، مالك الملك كله الذى لا تنفذ خزائنه . إنما يريد الله الخير لعباده والبر بهم والزكاة والطهر والنظافة والارتفاع .

" 1 " لا يوجد في الواقع فرد واحد يحكم بمفرده ، إنما يكون الحاكم دائماً طبقة يمثلها فرد أو أفراد .

" 2 " سيأتي فيما بعد حديث عن دور اليهود في إفساد أوروبا .

{وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (27)} [سورة النساء

[27/4

كما أن شريعة الله تتسم بالرشد، لأن منزلها - سبحانه - هو اللطيف الخبير، الذى يعلم حقيقة النفس البشرية التى خلقها {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14)} [سورة الملك 14/67] ويعلم ما يصلحها وما يصلح لها، وهو سبحانه عالم الغيب والشهادة الذى لا يند عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض، والذى يحيط علمه بالماضى والحاضر والمستقبل فى كل لحظة من لحظات هذا الوجود كله، فينزل التشريعات التى يعلم - سبحانه - أنه يتحقق منها الخير ولا يقع منها الشر، والتى تكون فى كل لحظة مناسبة لما نزلت من أجله .

والتوحيد يشمل ذلك كله .. يشمل العقيدة التى تستقيم بها النفس، والشريعة التى تستقيم بها الحياة .
إذ التوحيد - الذى يقوم عليه الدين المنزل من عند الله - هو توحيد الله فى ذاته وتوحيده فى صفاته وأفعاله . ومن صفاته التى ينفرد بها - سبحانه - أنه صاحب الخلق وصاحب الأمر كما مر بنا فى آية الأعراف .

{أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} [سورة الأعراف 54/7]

وأن الحكم - أى الحاكمة - له وحده فى كل شئ .

{إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (40)} [سورة

يوسف 40/12]

أما الشرك - المقابل للتوحيد - فهو يقع إما فى العبادة - بمعنى التوجه لغير الله بالشعائر التعبدية مع الله أو من دون الله - وإما فى الاتباع - بمعنى التحريم والتحليل والمنع والإباحة من دون الله وبغير إذن من الله - أو فيهما جميعاً كما فى آية النحل :

{وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ}

[سورة النحل 35/16]

والتوحيد هو الذى يصلح الأرض، والشرك هو الذى يحدث الفساد الذى ينهى الله عباده عنه :

{وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ حَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (56)}

[سورة الأعراف 56/7]

إذا علمنا ذلك لكه، وهو من بديهيات الدين المنزل من عند الله، استطعنا أن ندرك مدى التحريف البشع الذى أحدثته الكنيسة فى دين الله المنزل على عيسى ابن مريم، سواء فى تشويه العقيدة بقضية الثلثية وتأليه عيسى عليه السلام، أو بفضل العقيدة فى ذلك الدين عن الشريعة، وتقديمه للناس عقيدة منفصلة خلواً من

التشريع إلا القليل، واستطعنا أن ندرك مدى الشرك - في العقيدة والاتباع معاً - الذى أدخلته الكنيسة على دين التوحيد الذى يلتقى فيه الرسل جميعاً من أولهم إلى خاتمهم عليه الصلاة والسلام.

{ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ } [سورة الشورى 13/42]

ذلك الشرك الذى أشار القرآن إلى أحد طرفيه في هاتين الآيتين :

{ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ } [سورة المائدة 72/5]

{ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ } [سورة المائدة 73/5]

وأشار إلى طرفيه معاً في هاتين الآيتين :

{ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (30) اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (31) } [سورة التوبة 30/9-31]

وأخيراً نستطيع أن ندرك أن ذلك الدين - بصورته المشوهة تلك - لم يكن صالحاً للحياة .

ومع ذلك فإن الكنيسة ورجالها لم يكتفوا بهذه الخطيئة الكبرى في حق الدين السماوى، إنما أضافت إليها خطايا أخرى ومنكرات !

ثانياً: طغيان الكنيسة ورجال الدين :

حولت الكنيسة دين الله المنزل إلى روحانيات صرفة أو روحانيات غالبية بقصره على شعائر التعبد ومشاعر التبتل والخشوع والتقوى، وإبعاد الجانب الذى يحكم الحياة العملية - أى الشريعة - إلا قليلاً منه، وترك هذا الجانب لقيصر، ويتصرف فيه بمقتضى القانون الرومانى غير متقيد بما أنزل الله .

وكان المظنون أن تكون مهمتها تعميق الجانب الروحى - الذى قصرت الدين عليه - وأن تكون وسيلتها إلى ذلك هى التربية الروحية التى تربط القلوب بالله، لتحبه وتحشاه .

ولكن الكنيسة لم تكتف بهذا الجانب - المنطقى مع تصورها وتصويرها للدين - بل مارست سلطاناً " دنيوياً" هائلاً يتنافى مع هذا التصور، ولا يفسره شئ فى حقيقة الواقع إلا رغبة الطغيان !

بل إنهما - حتى فى الجانب الروحى البحت - قد مارست طغيانها الهائل، فأبت أن تتصل قلوب المؤمنين بربهم مباشرة بلا وسيط، وأصرت أن تكون هى وحدها - ولا سواها - الواسطة التى تتصل القلوب عن طريقها بالله !

ويجدر بنا أن نفصل هذا الطغيان إلى أبوابه المختلفة التى مارستها الكنيسة على العقول والأرواح والأبدان، مستغلة سلطانها على القلوب، الذى يصاحب الجانب الروحى عادة فى حياة الناس .

ونحتاج فى هذا الشأن أن نتحدث أولاً عن " رجال الدين " ثم نتحدث بعد ذلك عن طغيان رجال الدين، الذى اتخذ مظاهر متعددة أهمها :

الطغيان الروحى .

الطغيان العقلى والفكرى .

الطغيان المالى .

الطغيان السياسى .

الطغيان العلمى .

(1) رجال الدين :

لكل دين - سماوى أو غير سماوى - رجال يقومون بتلقين الدين للناس، وتعليمهم إياه، ويكونون - فى نظر الناس على الأقل - أصدق بأمور الدين وأعرف بها من سواد الناس الذين يكتفون - عادة - بممارسة ما يتلقونه من أولئك المعلمين دون تعمق فيه . وإذا كان هذا شأن كل دين - سماوى أو غير سماوى - فإن الدين المنزل من عند الله يفترق فى هذا الشأن عن الأديان المصنوعة على يد البشر فى خصلتين اثنتين على أقل تقدير .

الأولى : أن يكون الذين يعلمون الدين للناس أقرب في سلوكهم إلى حقيقة هذا الدين ومقتضياته أى أكثر وعياً وأكثر إخلاصاً وأقرب إلى الله، كما كان المهاجرون والأنصار بالنسبة للجيل الأول من المسلمين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

والثانية : أن يكونوا متفهمين في أمر الدين ليجيبوا الناس على أسئلتهم التي تخطر لهم بشأنه، سواء في الجانب التعبدي المتصل بالعقيدة والشعائر، أو الجانب العملى المتصل بالشريعة .

{وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (122)} [سورة التوبة 122/9]

وأمر طبعى أن يكون مثل هؤلاء الرجال موضع التقدير والاحترام من بقية الناس، ولكنهم - بحكم طبيعة الدين المنزل من عند الله - لا يكونون موضع التقديس . أولاً : لأنهم يعلمون الدين الحق، والدين الحق يجعل التقديس لله وحده وليس لأحد من البشر، وثانياً : لأنهم يعلمون الدين بجانبه : ما يتعلق منه بالعقيدة والشعائر وما يتعلق بتنظيم أمور الحياة الدنيا بمقتضى الشرع الربانى، فيخاطبون في الناس جانبهم الروحى وجانبهم العقلى والعملى التطبيقى، فيظل ارتباط الناس بهم ارتباطاً واعياً لا سحر فيه ولا غموض ولا أسرار . ومن ثم لا يصبحون - في حس الناس - وسطاء بينهم وبين الله، وإنما وسطاء بينهم وبين المعرفة الصحيحة بأمر الدين . وفرق بين الوساطين كبير !

ومن ثم فلا يوجد في الدين المنزل من يطلق عليهم " رجال الدين " إنما يوجد رجال صالحون من جهة، وعلماء وفقهاء في الدين من جهة أخرى . وليس لهؤلاء ولا هؤلاء على الناس سلطان إلا سلطان المحبة والتقدير، ومكان القدوة الصالحة في النفوس .

وحقيقة أن موسى عليه السلام - بوحي من ربه - قد ناط بكل سبط من أسباط بنى إسرائيل الاثنى عشر أعمالاً معينة يتوارثونها بينهم، ومن بينها إقامة الشعائر والنسك مما أوجد فيهم كهانة وكهانا .. ولكن هذا كان أمراً تنظيمياً فيما بين الأسباط لربط بنى إسرائيل بعضهم ببعض حتى لا يتفرقوا ولا يختلفوا فيما بينهم، ولم تكن كهانة للدين ذاته، أى وساطة بين بنى إسرائيل وبين الله .

أما الأديان الموضوعية فلها شأن آخر ..

إنها أولاً أديان موضوعية لا تعرف الله الحق ولا تعرف الناس به . ومن ثم فإن مفهومها الدينى ليس هو المفهوم الصحيح، والقداسة فيها ليست وفقاً على الله وحده كما ينبغى في الدين الحق .

وهي ثانياً تتكئ على الجانب الروحي : جانب العقيدة والشعائر والنسك، أكثر بكثير من الجانب العقلي والعملية التطبيقية - إن اهتمت بهذا الأمر على الإطلاق - ومن ثم يصبح ارتباط الناس بهم ارتباطاً روحياً ووجدانياً خالياً تقريباً من الوعي، أو - عند البسطاء من الجماهير - خالياً من الوعي على الإطلاق .
ومن هنا يصبح في هذه الأديان كهان أو رجال دين يمارسون سلطاناً روحياً هائلاً على الجماهير، وتحيط بهم حالة من الغموض والأسرار .. ويصبحون هم الوسطاء بين الناس وإلههم الذى يعبدون !
وقد كان هذا هو شأن المسيحية المخرفة التى وضعتها الكنيسة الأوروبية .
إنها دين وضعى وإن تمسح بالمسيح عيسى ابن مريم وبالوحي الربانى . وزعم أنه من عند الله .
ومن ثم كانت له كهانة، وكان له رجال دين .. وكان هؤلاء الكهان - والبابا على رأسهم - وسطاء بين الناس وبين الله !

لقد حاولت الكنيسة أن تسند وجودها وسلطانها إلى المسيح عليه السلام، إما بتأويل كلمات قالها بالفعل تأويلاً يناسب أهدافها، وإما باختراع كلمات لم يقلها وإلصاقها به، كما فعلت فى قضية البنوة والتألية، وإعطاء قانون قيصر شرعية كشريعة الله .

تزعم الكنيسة أن المسيح قال لبطرس كبير الحواريين : أنت بطرس، وعلى هذه الصخرة ابني كنيسة وأبواب الجحيم لن تقوى عليها . وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً فى السماوات، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً فى السموات " ¹ " وأنه قال : " أنى أهب سلطانى لكنيسة " "

ورببت الكنيسة على هذا لزعم أن المكان الذى مات فيه بطرس - وهو روما - لا بد أن يكون مقراً للنفوذ الدينى الذى ييسر ذراعيه على الأرض كلها ممثلاً فى الكنيسة، وإن ما تقوله الكنيسة - ولعلى رأسها البابا - واجب الطاعة لأنه من أمر الله .

ولكن القضية كلها قائمة على أساسين واهبين هاويين :

قائمة على أساس أن المسيح عليه السلام ذو طبيعتين إحداهما لاهوتية والأخرى ناسوتية، ومن ثم فهو إله وبشر فى ذات الوقت، وهو على هذه الهيئة وسيط بين البشر وذوى الطبيعة الناسوتية الخالصة والإله ذى الطبيعة اللاهوتية الخالصة !! فهو ليس رسولاً يبلغ وحي الله للناس - كما هو فى الحقيقة - إنما هو حلقة وسيطة تمر بها مشاعر الناس وأعمالهم لكى تصل إلى الله، كما تمر من خلاله كلمة الله إلى الناس !

" ¹ " انجيل متى ، الاصحاح السادس عشر " 19 - 20 "